◆ بذرة الملاحم العربية فى الأندلس

كنا إلى وقت قريب نقرأ ما رواه ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وابن بسام فى الذخيرة ، والمقَّرِى فى النفح من الأراجيز التاريخية الطويلة ، فنمر بها مرّ الكرام ، ولا نجدها تستأهل وقفات جادة للبحث والتحليل ، حتى جد من الآراء العلمية حول هذه الأراجيز ما يجعلنا نقف عندها فنطيل .

لقد استعر الخلاف بين علماء الأسبان وعلماء الفرنسيين حول أصل الملاحم الشعرية التى ظهرت فى فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، وفى أسبانيا بعد ذلك بقليل جدًّا من الزمن ، وحاول كل فريق أن يجعل أُمَّتَهُ ذات السبق الظافر فى الابتكار ، وكان أكثر الباحثين يميلون إذ ذاك إلى جانب فرنسا ، إذ إن سبقها الزمنى بمنزلة لامعة فى الوضوح ، فلا محل للقول بأن أسبانيا قد تقدمتها فى هذا الميدان ، وانتهت المسألة عند ذلك ، حتى ظهر الباحث الأسبانى الهادف «خليان ريبيرا » ، فأثبت فى أبحاثه الطويلة أن أدب الملاحم كان يملأ أسبانيا المسلمة ، وأن فريقًا من أدباء الأندلس فى عهد الإسلام قد وضعوا أساس هذا النوع من الأدب المتنازع عليه ، فإليهم – وبالتالى إلى أسبانيا – يرجع فضل السبق فى الابتكار .

وقد قام الدكتور حسين مؤنس بنقل آراء هذه البحاثة إلى العربية[1] ، مع التعقيب عليها تعقيبًا وافيًا شافيًا بما يرضى نهم الذين لا يعرفون الأسبانية ، ويتشوقون فى رغبة مستطلعة أن يلمُّوا بأقوال هذا المستشرق الجليل ، وكان مما قاله الدكتور مؤنس :

(١) تراجع مجلة الثقافة السنة الثانية سنة ١٩٤٦ ، ففيها سلسلة بحوث الدكتور حسين مؤنس المشار إليها.

«لاحظ ريبيرا أن المسلمين فى الأندلس عرفوا الشعر القصصى وشعر الملاحم فى زمن مبكر جدًّا ، فقد ذكرت المراجع مثلاً أن تمام بن علقمة – من كبار رجال البلاط الأموى فى عهد عبد الرحمن الداخل – وابنه هشام كتب ملحمة طويلة وصف فيها فتح المسلمين للأندلس وقدوم عبد الرحمن الداخل ، وتأسيس الإمارة الأموية فى قرطبة ، كذلك أنشأ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد قصيدة مماثلة لهذه فى أعمال بعض الأمراء الآخرين ، ونحن وإن كنا لم نعثر على شىء من هذه الملاحم – لعله يريد جميع هذه الملاحم ، لأن بعضها موجود فعلاً – إلا أن تواتر الإشارة إليها فى المراجع يدل على أن المسلمين عرفوا هذا النوع من الشعر ومارسوه » .

وقد فهم الأستاذ «ريبيرا» مدلول الملاحم على معنى واسع ، فلم يقصرها على النمط العربى الموزون ، ولكنه التمسها فى الأساطير النثرية التى تتعلق بالفتح العربى للأندلس ، وفى الأزجال الشعبية التى كانت تردد باللغة الدارجة بين مسلمى الأندلس إذ ذاك ، وجعل من الأراجيز المنظومة والأساطير التاريخية والأزجال الشعبية وحدة مرتبطة تقيم البناء الملحمى حين تعرض جوانب من البطولة والفروسية ، وتبرز عناصر المفاجأة والخوارق فى المعارك الحربية ، وتتحدث عن الاحتيال والخديعة حين يمهدان للنصر السابق السريع ، وقد رجع الأستاذ – فيما رجع – إلى تاريخ ابن القوطية الشهير ، فنقل عنه كثيرًا مما يتضمنه من غريب الخوارق عن الفتح الإسلامى إذ حفل كلام هذا المؤرخ – المسلم العقيدة ، القوطى الأصل – بما لا يكاد يوجد عند غيره من المسلمين ، فإذا كانت أكثر المراجع الإسلامية قد تحدثت عن معاملة الفاتحين لأسرة غيطشة ومروءة العرب وسماحتهم فى استرضاء القلوب ، مما يتفق وروح البطل المترفع كما تصوره الملاحم ، فإن «ابن القوطية » يتفرد بغرائب تنحو هذا النحو ، كموقف عبد الرحمن بن معاوية من أرطباس ، وقصة أرزاق بن ختيل صاحب وادى الحجارة مع موسى بن موسى ، وأمثال هذه الأساطير الشعبية ، فإنها فى رأى «ريبيرا » شعر قصصى ملحمى – أيًّا كانت لغته – صدرت عن شعب أندلسى شديد التعلق بأبطاله ، ولعل من المستحسن أن يرجع القارئ إلى بحوث الدكتور حسين مؤنس فى هذا الموضوع ، وقد تابعها مسلسلة بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ فى ثمانية أعداد حافلة بالجديد المفيد .

والذى يهمنا من ذلك كله هو بذرة الملاحم الشعرية الواضحة فى التراث الأندلسى ، وكيف كان أدبنا العربى صاحب هذه البذرة التى انتقلت منه إلى غيره ، فأقامت بناءً عالميًّا جديدًا فى دنيا الأدب الدولى كما يجزم «ريبيرا» وتلاميذه الكثيرون !

يستكثر بعض الباحثين أن يكون فى الأدب العربى ملحمة ما ، وأذهانهم تسبق بلا ريب – حين تطن فى آذانهم كلمة ملحمة – إلى إلياذة هوميروس ، وكأنهم يقولون فى قرارة نفوسهم : إمَّا أن تكون الملحمة كملاحم اليونان وإلا فلا – وهم يشترطون فيها بناءً على هذا التصور – أن تشتمل على حوادث خارجة عن المألوف ، بحيث يكون أبطالها مَرَدَةً ، أو أنصافَ آلهة ، وقد يكونون آلهة أحيانًا يتقاسمون المعركة ، وينصرون فريقًا على فريق ، وقد يكونون شخصيات خرافية لا وجود لها على الإطلاق ، فإذا تواضعت الملحمة فهى مزيج بين أبطال حقيقيين وآخرين من دنيا الخيال ، وهذا التصور بعيد عن الفكر الإسلامى الذى لا يعترف بغير إله واحد ليس كمثله شىء .

وهذا الشرط الذى أوحته أساطير اليونان ، يقف حائلاً دون الاعتراف بملاحم كثيرة ، فالكوميديا المقدسة ملحمة منظومة للشاعر الإيطالى الطائر الصيت دانتى تصف الجحيم وسكانه ، وما به من أهوال تجعل الولدان شيبًا ، وتعرج على الأعراف فتحدد مكان التطهير والاستنابة بين الجحيم والفردوس ... وأبطالها أناس واقعيون يحفظ التاريخ أخبارهم ، ويضعهم دانتى موضعهم اللائق فى اعتقاده ، ومنهم قائده الشاعر الرومانى «فرجيل» وحبيبته الحسناء «بياتريس » الفلورنسية التى ألهمته أجمل أناشيد الصبابة ، بل أوحت له بهذا الأثر الفنى الجميل .. والكوميديا بهذا الوضع تبتعد كثيرًا عن ملحمة هومير.

وكذلك يقال فى ملاحم «أولارندو الغاضب » للشاعر الإيطالى «أريوستو» ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى «جون مِلْتُن » ، فالأولى تصف المعارك التى دارت بين المسيحيين والوثنيين ، إذ تتحدث عن انتشار المسيحية وازدهارها ، وطابعها دينى كطابع دانتى فى الكوميديا الإلهية ، والثانية ملحمة تصف نشأة العالم ، وتتحدث عن خروج آدم وحواء من الجنة ، مستقاةٌ مصادرها من الكتاب المقدس ، مع إضافات هامة تمخض عنها إحساس الشاعر الكبير ! فإذا جاز لنا أن نعد روائع دانتى ، وآريستو ، ومِلْتُن

من الملاحم – وهى كذلك فعلاً باعتراف الجمهرة من الناقدين – فقد ابتعدنا كثيرًا عن شرط الخوارق المعجزة للآلهة وأنصاف الآلهة ، وأمكننا أن نطلق الملحمة على كل حادثة عظيمة تدور حول بطل عظيم أو عدة أبطال يجمعهم خيال الشاعر فى نطاق محدود ، ويتصرف بهم كما يشاء ، ولو جاز لنا أن نقصر الملحمة على المتعارف منها لدى الإغريق فلماذا لا نفعل ذلك بالأجناس الأدبية الأخرى غير الملحمة ، فالخطبة مثلاً عند الإغريق ، ليست كالخطبة عند العرب فى وجهٍ ما من الوجوه ، إذ إن الخطب المروّية عن اليونان قضائية سياسية تنتهى بأخذ الأصوات من السامعين ، وأصحاب هذه الأصوات من القضاة يصدرون أحكامها غير مسببة أو مشفوعة بحيثيات ما ، وإنما يتأثرون تأثرًا وقتيًّا بما يسمعون، فيصدرون أحكامهم، وتكون كثرة الأصوات وقِلّتها هى عامل التبرئة والإدانة، بدون نظر إلى حجاج أو برهان ! على ذلك مضت الخطب اليونانية التى انتقلت إلينا من أشباه بركليس ، وديموسنتيس .. وطبيعى أنها بذلك تختلف عن خطب الدنيا فى المشرق والمغرب ، ونحن نعرف مدى اشتهار الخطابة لدى العرب فى العهد الجاهلى وما يليه ، فلا مناسبة إطلاقًا بين قس بن ساعدة ، وسحبان وائل ، وأكثم بن صيفى ، وما تُعورف من خطب اليونانيين ، وقد اعترف الكاتبون بخطب العرب بدون أن يقيسوا بخطب اليونان ، فلماذا لا نعترف بملاحم العرب وندعى أنها تفترق عَمَّا تُعورف من ملاحم هوميروس ؟.. وكيف يضيق الأمر فى عيوننا لدى الحديث عن الملاحم العربية بالذات ؟.

إن من أخطر الأشياء أن نستند إلى أحكام عائمة لا تعتمد على برهان صحيح ، فمنذ قال الفيلسوف الفرنسى «أرنست رينان » : «إنَّ العقل السامى عقل جزئى لا يصدر عنه أثر كُلى متشعب مستوعب » ، منذ قال ذلك القول الجرىء ونحن نرفض الاعتراف بملاحم العرب ، لأن الملحمة موضوع كلى لا يستطيعه عقل سامىٌّ !! وقد أثبتت الكشوف الحديثة – بطريقة لا تقبل الشك – فساد هذا الحكم المغرض ، وكان اكتشاف الملحمة السامية قبل الملاحم الإغريقية أول معول فى هدم هذه الترهات .. ولن نبعد كثيرًا عن موضوعنا حين نستطرد إلى ذلك فنقول :

من المسّلم به تاريخيًّا أن سكان العراق وبابل وآشور وفينقية نزحوا أصلاً من جزيرة العرب فى موجات متدرجة ، حيث استوطنوا هذه الأقاليم ، فهم عرب ساميون ، وقد اكتشفت بعثات الآثار التى بدأت عملها سنة ١٨٤٣ بوساطة قنصل فرنسا بالموصل – وما وليها من بعثات أخرى فرنسية وإنجليزية – اكتشفت هذه البعثات مكتبة ملك آشور «بانيبال» وبها اثنا عشر لوحًا يتضمن ملحمة «جَلْجَمِيش » الذائعة الصيت ، وهى ملحمة تتحدث عن بطل امتزجت فيه الألوهية بالإنسانية حتى غدا مرهوبًا[1] مخيفًا ، يحارب العمالقة ، ويتوجه إلى جبال لبنان لينازل عملاقها الهائل «هومبايا...» وتمضى الملحمة فى جو أسطورى كجو «هومير» ، فتتحدث عن أعاصير الحب والحقد والوقيعة ، وتسرد الخوارق من الانتصارات على المرَدَة ، والثور السماوى الذى بعثته الآلهة ليدمر المحصولات ، ويبيد الشجر ، ويبعث الحرائق ويقتل «جلجميش» ! والإفاضة فى أدوار هذه الملحمة مما يتعذر فى هذا النطاق ، ولكننا نشير إلى أنها ملحمة عربية سامية ، تبطل نظرية التفكير الجزئى التى هتف بها «أرنست رينان» وتلقَفَها من يرجفون بالعرب ولا يطيقون أن يروا لهم خيرًا يُذكر بحال .. وليت شعرى ، ما يقول هؤلاء حين يسمعون أحكام النقاد تجزم بأن ملحمة «جلجميش » قد انتقلت مع حضارة بابل القديمة إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها ، فعرفها اليونان ، ولعلها كانت مصدر إلهام لهوميروس ، ولا سيما أن التشابه واضح بين الملحمتين يتطلب من يخصُّه بالتحليل ؟!

إن الملاحم تنشأ دائمًا فى عهود الطفولة العقلية لدى الأمم ، إذ تحاول الشعوب الفطرية فى سذاجتها البدائية أن تحلّل ما تعجز عن تعليله من ظواهر الكون فتلجأ إلى الخرافة ، ثم تُسلسل هذه الخرافات حتى تكون قصصًا غريبة تكون فيما بعد ملاحم بطولية ..! ولقد كان للعرب فى الجاهلية ملاحمهم دون نزاع ، لأن أُمة تسكن الصحراء وتتحدث عن الغول والعنقاء ، ويصف شعراؤها منازلة الجن فى أعماق الفلوات – كَتَأَبَّطَ شرًّا وغيره – لابد أن يكون لها ملاحم بطولية ، ولا سيما أن القارات القبلية متصلة لا تنقطع ، وأيام العرب الحربية لا تحصر .! وقد يسأل سائل : لماذا لم نعثر على هذه

(١) هكذا كانوا يعتقدون فى أوهامهم .

الملاحم كما عثرنا على إلياذة هومير مثلاً ؟ وتعليل ذلك – فيما أراه شخصيًّا ، وأكاد أعتقد أنه على جانب من الصواب – أن انفكاك الشعر اليونانى من القافية قد ساعد على ضم الأشعار بعضها إلى بعض حتى كوّنت جوانب كثيرة من الإلياذة ، وجاء هومير فوجد هذا التراث الكبير أمامه فنسّقه وضم بعضه إلى بعض ، أما اعتماد الشعر الجاهلى على القافية والوزن فقد حال دون ضم هذه الأشعار إلى ملحمة واحدة ، فإذا كانت موقعة كموقعة داحس ، والغبراء ، أو ذى قار ، أو الذنائب ، فإن أكثر من شاعر قد قال فى كل موقعة منها إذ قال ما شاء من بحره الخاص وقافيته الخاصة ، ومضى الزمان فنُسب كل قول إلى قائلة ، دون أن تجمع أشعار المعركة فى ملحمة خاصة ، إذ وقفت القافية والبحر معًا دون هذا الاندماج والالتحام ، وليس كذلك فى الشعر اليونانى ، لأن الخلاص من هذين القيدين قد سهل للمتفرق أن يجتمع ويلتئم ، وبخاصة إذا قام به عبقرى جهير كهومير .

لنا إذن أن نلتمس بذور الملحمة العربية فيما تفرق من شعر الوقائع فى الجاهلية والإسلام ، فإذا ما امتدَّ بنا الزمن إلى العصر الأندلسى ، فإننا نجد تعديلاً جديدًا يطرأ على ما يُعرف بشعر الوقائع ، وهو ما نلمسه فى الأراجيز التاريخية التى أشار إليها البحاثة المنصف «ريبيرا» ، والتى من أجلها اضطررنا مجهدين أن نطوف طوفانًا سريعًا حول معنى الملحمة ، ومصدرها الأول فى الشرق والغرب مما لابد من الإلمام به فى هذا السبيل .

لقد ذكر العلامة «ريبيرا» أن شاعرًا كبيرًا (هو تمام بن علقمة) قد أنشد أرجوزة تاريخية أندلسية ، والمصادر الأندلسية لا تعطينا شيئًا ذا بال عن هذا الشاعر ، ولا عن أرجوزته الملحمية ، وإنها لتذكر أنه توفى سنة ٢٨٢هـ ، وهذا الموعد يوقعنا فى تساؤل حائر ، لأن ابن المعتز الشاعر العباسى قد توفى سنة ٢٩٦هـ ، أى بعد ما يقرب من ثلاثة عشر عامًا من وفاة تمام ، وكنا نعرف أن ابن المعتز هو أول من نظم الأراجيز التاريخية فى الأدب العربى ، ولكن لدينا الآن ما يوجب أن تكون أرجوزة تمام سابقة له ، لأن ابن المعتز نظم أرجوزته فى سيرة الخليفة العباسى المعتضد ، وذكر فيها وفاته ، مما يُشعر أنها قيلت بعد موت الخليفة سنة ٢٨٩ ، وإذن فقد تأخرت أرجوزة ابن المعتز عن أرجوزة تمام لا محالة ، ولكن من يضمن لنا أن نجزم بانتقالها إلى الشرق ومحاكاة ابن المعتز لها ؟ يخيل إلىَّ أننا لا نستطيع الجزم بذلك عن يقين ، فقد يكون ابن المعتز ممن قَرَءُوا أرجوزة تمام ،

وقد تكون أرجوزته فى المعتضد من قبيل توارد الخواطر ، يدل على ذلك أن ابن المعتز كان كثير النظم فى الأراجيز ذات القافية المزدوجة فى غير باب التاريخ ، وهو ما لم يعهد لأندلسى قبله ، فربما امتد به إعجابه بالمعتضد وحسرته عليه بعد وفاته إلى أن يخصه بأرجوزة سهلة التعبير عن جميع مواقفه ، حيث لا يتكلف لها تكلف قصائد الرثاء ، من احتفالٍ بالقافية ، واهتمام بما برع فيه من غرائب التشبيهات ، ودقيق الأوصاف ، ولو أن أرجوزة تمام نُقلت إلى المشرق واشتهرت اشتهارًا جعل ابن المعتز يحاكيها لتناقلتها كتب المشارقة كلونٍ جديد ، ولكنها سكتت عنها نهائيًّا ، ولولا إشارات مقتضبة فى كتب الأندلس ما سمع بها العلامة الأسبانى «ريبيرا» .. فإذا كان ابن المعتز قد مرن على نظم الأراجيز ذات القافية المزدوجة فى غير باب التاريخ ، كقوله مثلاً يصف الرياض فى منظومته ذم الصَّبُوح :

ألا ترى البستان كيف نورا ... ونشر المنثور زهرًا أصفرا
وضحك الورد إلى الشقائقِ ... واعتنق الورد اعتناقَ وامقِ
فى روضة كحلل العروسِ ... وخرّم كهامة الطاووسِ
وياسمين فى ذُرَى الأغصانِ ... منتظمٍ كقطع العقيانِ
والسَّرْوُ مثل قُضب الزبرجدِ ... قد استمدَّ العيش من تُرْبٍ نَدِ
على رياض وثرى ثرىٍّ ... وجدول كالمبرد المجلىٍّ
والسوسن الأبيض منشور الحللْ ... كقطن قد مسّه بعض البَلَلْ
وحلق البهار بين الآسِ ... جمجمة كهامة الشَّماسِ
وجُلَّنار كاحمرار الخدِّ ... أو مثل أعراف ديوك الهندِ

فإن ذلك يُسَهِّلُ لنا القول إنه نظم أرجوزته فى المعتضد بدءًا دون أن يتأثر بشاعر لا يعلم عنه مشرقى - فيما نظن - شيئًا ، أما أرجوزته المعتضدية فسلسلة لم تثقل بمرهقات الصور والتشابيهِ ، وسننقل هنا افتتاحها ليكون تمهيدًا لحديثنا الآتى عن أرجوزة ابن عبد ربه ، لأن لدينا بعض ما يقال بصدد الشاعرين الكبيرين .. قال ابن المعتز فى مطلع أرجوزته :

باسم الإله الملك الرحمن ... ذى العزِّ والقدرة والسلطانِ
الحمد لله على آلائه ... أحمده والحمد من نعمائه
أبدع خلقًا لم يكن فكانَا ... وأظهر الحجة والبيانا
وجعل الخاتمَ للنبوّةْ ... أحمدَ ذا الشفاعة المرجوَّةْ
الصادق المهذب المطهرَا ... صلى عليه ربنا فأكثَرا
مضى وأبقى لبنى العباس ... ميراثَ مُلْكٍ ثابت الأساسِ
برغم كل حاسدٍ يبغيهِ ... يهدمه كأنه يبنيهِ
هذا كتابُ سِيَرِ الإمام ... مهذبًا من جوهر الكلامِ
أعنى أبا العباس خيرَ الخَلْقِ ... للمُلْكِ قول عالمٍ بالحقِ
قام بأمر الملك لما ضاعا ... وكان نهبًا للورى مُشَاعا

فأنت ترى هذا النظم شبيهًا بقول العلماء لا بإبداع الشعراء ، وهو إلى أن يلحق بمتون العلوم أقرب من أن ينتسب إلى جوهر الأدب اللباب ، ونحن لا نظلم ابن المعتز بهذا الحكم فللشاعر تحليقاته السامقة فى أجواء أخرى غير هذه الأرجوزة ، ولكننا نظلم ابن عبد ربه الشاعر الأندلسى ظلمًا فادحًا حين نجرى حكمنا على أرجوزة ابن المعتز إلى أرجوزته الملحمية البديعة ، وهذا ما وقع فيه كثير من الكُتَّاب .

فالدكتور أحمد هيكل – على حُبه لابن عبد ربه – ومقاومة آراء من يغمضون عن قيمته الشعرية[1] ، قد حكم على أرجوزته التاريخية حكمًا قاسيًا حين قال فى كتابه (الأدب الأندلسى «ص ٢٥٧») :

«وكما عرف ابن عبد ربه بالممحّصات عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، تلك الأرجوزة التى مَجَّدَ فيها الخليفة ، ووصف حروبه وغزواته ... والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ، فليس فيها من عناصر الشعر شىء ذو قيمة ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى إنتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى !» .

(١) غمض عن الشىء : تجاوزَ وأَغضَى .

هذا حكم الدكتور هيكل ، ولكننا نقرأ أرجوزة ابن عبد ربه فنجدها رائدة فى حقلها الملحمى ، لأنها لم تسلك مسلك ابن المعتز حين صبّ حقائق التاريخ على طريقة المتون ، بل كانت أناقته الشعرية تسايره مسايرة واضحة ، وطبيعى أننا لا نطلب منه فى عملٍ مبتدَأ كهذا – أو كاد أن يكون مبتدأ – أن يطير مع الخيال فى أجوائه ، فيحمل أفكاره إلى مطارح عالية فى جو من التصوير والإيحاء ، لأن ذلك لا يتيسر فى فنّ ناشئ يحبو فى مدارج الطفولة ، ولكننا نجد عنده بوادر الجودة حين نراه لا يغفل الوصف الدقيق ، ولا يعدو التصوير الموذق ، فالملحمة أولاً فى بطل واحد ذى معارك مختلفة ، وثانيًا تميل إلى ناحية الشاعر أكثر من ناحية المؤرخ ، وهو ما تعذر على ابن المعتز ، مع تفوقه فى دنيا الأدب بعامة ، فابن عبد ربه مثلاً يصف ازدحام الفتن قبل تولية الناصر ، فلا ينص على ذلك فى حكم تقريرى كمتون العلماء ، ولكنه يذكر كيف ضاقت الأرض بساكنيها ، وتخبط الناس فى عشواء مدلهمة ، وأخذتهم الصيحة حتى حُرموا الرقاد ، وتفزَّعُوا فى أوقات الصلاة وَجِلِينَ أن يدهمهم داهم ، وكل ذلك شعر ينحو منحى العاطفة ، فيثيرها كما يريد ، إذ يقول :

هذا على حين طَغَى النفاقُ ... واستفحل النّكّاث والمُرَّاقُ
وضاقتِ الأرضُ على سُكَانها ... وأذكت الحرب لظَى نيرانها
ونحن فى عشواء مدلهمَّة ... وظُلمة ما مثلها مِنْ ظُلمة
تأخذنا الصيحةُ كُلَّ يومِ ... فما تلذُّ مثلةٌ بنومِ
وقد نصلى العيد بالنواظر ... مخافة من العدو الثائرَ
حتى أتانا الغوث من ضياء ... طبق بين الأرض والسماء
خليفة الله الذى اصطفاه ... على جميع الخلق واجتباه

وهو إذا تعرض لهزيمة الاعداء لم يقتضب اقتضاب ابن المعتز ، ولم يُخَلَّ بالوصف إخْلال عبد الجبار زميله الملحمى – وسنعرض له – ولكنه شاعر متأنٍّ متمهل ، يمر ببنانه على أوراق الورد فلا يتعجل ؛ وهو بعدُ فى معركة حامية تلهب بالنار ، وتعج بالدماء ،

فالعلجان – قائدا الإفرنجة – خائفان مذهوبان ، يفران إلى حديقة يظنانها باب النجاة ، فتغدو حديقة الموت ، يتحصنان بمعقل فيصبح معتقلاً ، يستطعمان الماء فتأخذهما السيوف ، وتتساقط الصخور ، ويمضى سيف الله ليقيم مأدبة حافلة ضيوفها الغربان والنسور ، وكم ذبح بها من جزور :

تضافر الكُفر مع الإلحادِ ... واجتمعوا من سائر البلادِ
فاضطربوا فى سفح طَوْدٍ عال ... وصعقوا البغية القتال
فبادرت إليهم المقدمة ... سامية فى خيلها المسوَّمة
وَرَدُّهَا مُتَّصِلٌ بِرَدِّ ... يردُّه بحرٌ عظيمُ المدِّ
فانهزم العلجان فى علاجِ ... ولبسوا ثوبًا من العجاجِ
كلاهما ينظر حينًا خلفه ... فهو يرى فى كل وجه حتفه
والبيضُ فى آثارهم والسُمْرُ ... والقتل ماضٍ فيهم والأَسْر
فلم يكن للناس من براحِ ... وجاءتِ الرؤوسُ فى الرماحِ
فصادفوا الجمهورَ لما هزموا ... وعاينوا قوادهم تخرموا
فدخلوا حديقةً للموْتِ ... إذا طمعوا فى حصنها بِالفَوْتِ
فيالها حديقةً ويالها ... وافتْ بهم نفوسهم آجالها
تحصنوا إذ عايَنوا الأهوالاَ ... بمعقلٍ كان لهم عقالاَ
وصخرة كانت عليهم صَيْلَماَ ... وانقلبوا منها إلى جهنمَا
تساقطُوا يستطعمون الماءَ ... فأخرجت أرواحهم ظماءَ
فكم لسيفِ الله من جَزُورِ ... فلا مأدب الغربانِ والنسور

لا جرم نجد فى هذه الملحمة روح الشعر ، وإذا ألحقها ناقدٌ بالنظم فقد ظلم ، وإنا لنقرؤها فنرى بها من الوقفات الرائعة ما تجود به قريحة شاعر ملىءٍ ، فهو يتحدث عن انهزام قائد إفرنجى ، فيصف المعركة فى دقة ، ثم يقف بخياله عند القائم المنهزم وقد قُتل ونصب مصلوبًا فى مدينة مع نفرٍ من معاونيه ، إذ امتطى فى صلبه مطيةً قائمة ، لا تبرح

جامدة لا ترمح[1] ، يقف مباشرًا للشمس والرياح ، يندب نفسه ، ويرثى بلواه ، ويحذر أصحابه من سوء مصيره ، إذْ ورد موارد الخزى ، ونصب للناس مثال الفشل والتهور والخذلان ! كل ذلك يسوقه ابن عبد ربه ، فيقول فى إبداع :

هو الذى قام مقام الضَّيْغَمِ ... وجَالَ فى غِرَاثِة بالصَّيْلَمِ[2]
برأس جالوت النفاق والحسدْ ... مَنْ جَمَعَ الخنزيرَ فيه والأسدْ
فهاكه من صبحة فى عدَّة ... مصلّبين عندنا بالسُّدَّة
قد امتطى مطيةً لا تبرحُ ... صائمة قائمة لا ترمحُ
مطيةٌ إنْ يعْرُهَا انكسارُ ... يطلبها النّجَّارُ لا البيطارُ
كأنه من فوقها السّوارُ ... عيناه فى كلتيهما مسمارُ
مباشرٌ للشمس والرياحِ ... على جوادٍ غير ذى جماحِ
يقول للخاطر بالطريقِ ... قول محبٍّ ناصحٍ شفيقِ
هذا مقامُ خادِمِ الشيطانِ ... ومن عصَى خليفةَ الرحمنِ
فما رأينا واعظًا لا ينطقُ ... أصدق منه فى الذى لا يَصْدُقُ !

إنَّ وصفًا بديعًا كهذا يظلمه الدكتور هيكل حين يرى أنه أشبه بالمنظومات التاريخية ، وهو إلى تراثه التاريخى أقرب منه إلى تراثه الفنى .. ويسبقه أستاذنا الدكتور أحمد أمين إلى حُكم قريب من حكمه العنيف حين يرى[3] أن الأرجوزة أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ، ليس فيها خيار ولا افتخار ، ولا شىء من ذلك !! ثم يقارن ابن عبد ربه بأبى طالب عبد الجبار فيرى[4] أن أرجوزة أبى طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه ! وهذا ما أعجب له كثيرًا ..

---

(١) وهى بعد مطية من خشب ، إذا انكسرت عالجها النجار لا البيطار ! .. أرأيت أبدع من هذا ؟!
(٢) الضيغم : الأسد – وغراثه : جوعه .. والصَّيْلَم : السيف .
(٣) بالجزء الثالث من ظهر الإسلام – ص ١١٩ .
(٤) المصدر السابق – ص ١٢١ .

لقد عاش أبو طالب عبد الجبار فى عصرىْ ملوك الطوائف والمرابطين ، واشتهر بالشعر ، حتى عُرِفَ – كما يقول ابن بسام – بمتنبى الغرب ، وهو وصف تنازعه معه الرمادى ، وابن هانئ ، وابن دراج ، فكل هؤلاء لدى مواطنيهم يشبهون أبا الطيب .. وقد نظم ملحمة تاريخية متأثرًا بسابقه ابن عبد ربه دون نزاع ، حيث إن الأرجوزة مدونة بالعقد ، وهو من الشهرة (بالأندلس والمشرق معًا) بمكانة توجب على أبى طالب وأضرابه أن يَرِدُوا مناهله ، ومع أنها من ناحية الكم تقارب ملحمة ابن عبد ربه فإنَّ هناك فرقًا أصيلاً بين الملحمتين ، فصاحب العقد الفريد قد اختص الناصر بملحمته ، فلم يركض فى غير ميدانه ، وبذلك اتسع المجال أمامه للوصف البارع ، والإجادة اللافتة ، ولكن عبد الجبار بدأ أرجوزته بالتحميد والتسبيح ، وتعرَّض إلى ما سماه مقدمات من أدلة المعرفة ، والاستدلال على الصانع تعالى من الصنعة ، وهو ضرب لا يتصل إلى الشعر بسبب ، بل هو بمتن الجوهرة أو بمتن الخريدة فى علم التوحيد أشبه ، كأن يقول :

وَقُلْ بما يقولُ أهل الحق ... من مُثْبِتى صفاتِ رَبِّ الخلْقِ
وأدوات الحس يا من يفحص ... عن علمها ومن عليها يحرص
السمع والأبصار ثم اللمس ... والشم والذوق فتلك خمس

ثم انتقل إلى باب التفكر فى الملكوت ، فتحدث عن الأجرام والأفلاك والعناصر الأربعة حيث أطال ، ثم تطرق إلى باب بدء الخليقة وذَرْء البرية ، فألَمَّ بحديث آدم وحواء، وقابيل وهابيل ، فإذا قال ما عنده انتهى إلى الأنبياء والمرسلين ، ثم إلى الخلفاء الراشدين ، فخلفاء الدولة الأموية ، فما وليها من رجال الدولة العباسية ، حتى إذا ذكر ما شاء الله أن يذكر من أسماء الخلفاء والوزراء والأصهار والكتّاب تعرض إلى الدولة الأموية بالأندلس ، وتركها إلى الحديث عن الفتنة الأولى بقرطبة ، ثم ملوك الطوائف بعد ذهاب دولة ابن عامر ، وأمراء الجماعة بقرطبة ، ثم دولة المرابطين إلى عهد على بن يوسف بن تاشفين ، فيالله من جهد جاهدٍ ذهب فى غير طائل ، لم تتخلله ومْضة شاعرية، أو لمحة أدبية ، بل انصبَّ على القول انصبابًا يذكرنا بألفيات ابن مالك ، وجلال الدين السيوطى ، وابن معطى ! .. ومع ذلك يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين – رحمه

الله – إن أرجوزة أبى طالب أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه .. يخيل إلىَّ أن الأستاذ رحمه الله حاول أن يقول العكس فسبق قلمه ، وإلاَّ فهو من الفطنة والبصيرة والذوق بحيث لا يصدر عنه هذا الرأى فى بساطة مستغربة ، ومهما يكن من شىء فقد ذكر ابن بسام أرجوزة أبى طالب (بالقسم الثانى من المجلد الأول) كما ذكر ابن عبد ربه ملحمته بالعقد ، فليرجع إليهما من يريد الموازنة عن عيان .

على أن هناك أرجوزة ملحمية أُخرى للشاعر الأندلسى يحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وكان شاعرًا مطبوعًا يتشبه بأبى نواس فى افتنانه ونزعته إلى التجديد ، ويقوم بالسفارة السياسية بين ملوك العرب والروم ، وقد أشار المقرى فى النفح إلى هذه الأرجوزة وذكر شيئًا منها ، وإن وجود أربع أراجيز تاريخية بالأندلس لينبئ عن مثيلات لا نعرف عنها شيئًا ، وهو مما يؤيد الأستاذ «ريبيرا» فى شيوع هذا الضرب من الملاحم وانتشاره ، ثم فى تأثيره فيما بعد فى الأدبين الأسبانى والفرنسى معًا .

وكان من المحتمل أن ينتشر هذا اللون فى المشرق والمغرب معًا ، على أن تكون الأندلس رائدته الأولى بدون شك ، ولكن غفوة التجديد فيما بعد زوال الأندلس ، وطغيان المحاكاة فى عصور المماليك وما وليها من عهود الانحطاط .فى الأدب العربى ، قد قضى على هذا الاحتمال ، حتى جاءت النهضة الحديثة وأحس الشعراء فى أوائل القرن العشرين بسيطرة الاستعمار الغربى ، ومحاولته الجاهدة فى إخماد الروح العربية والإسلامية معًا ، وكان حاضر الدول العربية إذ ذاك من الاحتلال والسيطرة الأجنبية مما يدعو الشعراء إلى التغنى بالأمجاد العربية الإسلامية القديمة كى يوقظوا الهمم ، ويبثوا الحمية فى النفوس ، فانطلق شعراء هذه الحقبة يتغنون بأعلام الإسلام وأبطال العرب ، تحدث حافظ إبراهيم عن عُمَرَ فى قصيدته الشهيرة .

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها ... أنى إلى ساحة الفاروق أهديها

وتحدث محمد عبد المطلب عن الإمام على بن أبى طالب فى علويته الرائعة :

أرى ابن الأرض أصغرها مقامَا ... فهل جعل النجوم له مرامَا

زهاه رونق الخضراء لما ... تلفت فى مجرَّتها وشاما

وتحدث عبد الحليم المصرى عن أبى بكر الصديق فى بكريته الذائعة :

أَفِضْنِي أبا بكرٍ عليهم قوافيَا ... وأَمْطِرْ لسانى حِكْمَةً ومعانيَا
وقل لرسولِ الله يغفر زَلَّتِى ... إذا لم أكن فيه بقولى باديا

وكانت هذه القصائد الحماسيّة وأمثالها تُقال فى حفلات عامة تنهض بها لجان محترمة تضم أفاضل المصريين ، وقد رأس بعضها شيخ شعراء مصر إسماعيل صبرى .. ولعل من البديع أن نذكر أن الشاعر البدوى محمد عبد المطلب أنشد علويته فى حفل دائرى بالجامعة، وكان يركب جملاً ، ويرتدى عقالاً بدويًّا ، وملابس عربية ، ويقود زمام مطيته عربيان صميمان ، أحدهما عبد الستار الباسل عضو الشيوخ ، مما يصور حنين النفوس إلى أمجاد العرب ، وذكريات الإسلام !

أما شوقى ، فقد أدلى بدلوه فى الدلاء ، ونظم أرجوزته المعروفة «دول العرب وملوك الإسلام» سنة ١٩١٩ ، وقد أجرى القول فيها على سنن ابن عبد ربه ، مما يشعر باحتذائه المتابع ! ولا أدرى لماذا اكتفى شوقى فى ملحمته التاريخية بالسرد التاريخى وحده، وهو قدير على أن يبعث من روحه الشاعرية ما يجعل أرجوزته جديرة باسمه ، لقد كان لشوقى من ثقافته الغربية فى فرنسا ما يدعوه إلى أن يفهم من الملحمة غير ما فهمه ابن عبد ربه ، ولكنه يحتذى الشاعر الأندلسى غير عابئ بما تتمخض عنه الدراسات الأدبية من بحوث ناقدة تحدد صلة الشاعر بالتاريخ ، وترى فى استلهام الحوادث شيئًا آخر غير السرد المتتابع ، والحكاية السريعة ، بل إن من الغريب أن تكون أرجوزة ابن عبد ربه أَوْفَى شاعرية من أرجوزة شوقى ، ونحن نذكر منها نموذجًا يعتبر من أحسنها وأوفاها ، إذ يتحدث شوقى عن وداع عبد الله بن الزبير لأمه قبل مصرعه ! ومع أن الموقفَ عاطفىٌّ مؤثر ، يقتضى من الشاعر أن يبعث حرارة ملتهبة فى قوافيه ، إلا أن شوقى كان قصاراه أن يقول :

وضاق عبد الله عن عبد الملك ... ورأيه الوضَّاح فى الخطب الحلك
فجاءَ أُمّه ومَنْ كَأُمِّهِ ... لعلها تحمل بعض هَمِّه !
فقال ما ترين ؟ فالأمر لك ... للموتِ أَمْضِى أَمْ لعبدِ الملكِ

قالـــتْ إذا كُنْـــتَ لحـــقٍّ ثُرْتَـــا ... فـــلا تخـــالفْ مـــا إليـــهِ سِـــرْتا
أو كانـــتِ الـــدنيا قـــصارَى همتـــك ... فبـــئس أنـــت ، كـــم دم بـــذمّتك
الحـــقْ بـــأحرارٍ مـــضوا قـــد أحـــسنوا ... فـــالموتُ مِـــنْ ذُلِّ الحيـــاة أحـــسن
ولا تقـــل هُنـــت بـــوهن مَـــنْ معـــى ... فلـــيس ذا فعـــل الـــشريف الألمعـــيِ
أنـــت إلى الحـــق دعـــوت صـــحبكا ... فَـــاقْضِ كمـــا قَـــضَوْا عليـــه نَحْبَكـــا
ولا تقـــل إن مَـــتَّ مَثَّلُـــوا بـــى ... وطـــاف أهـــلُ الـــشام بالمـــصلوبِ
هيـــهات مـــا للســـلخ بالشـــاةِ ألَمْ ... ورُبَّ جـــذعٍ فيـــه للحـــقِ علـــم

أما الشاعر الكبير الذى يمكن أن يذكر فى هذا الموقف بالثناء والحمد ، فهو الأستاذ أحمد محرم ، إذ نظم المواقع الإسلامية الأولى على عهد الرسول فى إلياذة ضافية تشمل أربعة أجزاء ، وقد كافأه الله على نيّته ، فنهضت محافظة البحيرة بطبع إلياذته ، والاحتفال بذكراه ، وهى إلياذة قوية ، تمخضت بذرة الملاحم الأندلسية عن دوحتها المورقة ، ولبعض الناقدين ملاحظات على طريقتها ، ولكنها مع ذلك إبداع ملحمى فريد فى الأدب العربى ، وهو تطور طبيعى لخطوة ابن عبد ربه وأضرابه ، فهى مما يذكر فى هذا الباب مشيرًا إلى بعض ألوان التأثر بين السابقين واللاحقين .

★★★